



كانون الثاني - آذار ١٩٣٤

العدد الثاني والثلاثون

حالة الاسلام

في القرن الرابع للهجرة

بنم الاب لامنس اليسوعي

من يلقى نظرة دقيقة على حالة الاسلام السياسية في اوائل القرن الرابع للهجرة يتحسّن ان تلك الحالة ليست على شيء من الازدهار. فان الخلافة ، اذ ذاك ، اصبحت عرضة للفوضى والانقسام فالتجزؤ . حتى ان تلك الامبراطورية الفسيحة التي اورثها الامويون العالم الاسلامي غدت مجموعة دويلات تتناظر وتتنافس ان لم تتقاتل وتتطاحن . فاستقل بلاد فارس بنو بويه ؛ وبالعراق والجزيرة بنو حمدان ؛ وبسط الاخشيديون سلطانهم على مصر وسورية ؛ والفاطميون على افريقية ؛ وظلّ الامويون سائدين في اسبانية ؛ وبنو سامان في خراسان وما وراء النهر ؛ وكانت بلاد العرب الجنوبية ومنطقة البحرين تخضع للقرامطة ؛ وخرجسان وطبرستان في حكم الديلم ؛ والبصرة وواسط في حكم البريدي . اما الخليفة فلم يبق له الا مدينة بغداد

وقسم من السواد . هذه ، باختصار ، حالة البلاد الاسلامية في اواخر القرن الثالث للهجرة .

على ان ملوك هذه الدويلات الاسلامية وامراءها كانوا يحتفظون للخليفة بعض الميزات الشرفية . فكانوا يقرّون بسلطته العالية بان يحملوا اسمه في المكان الاول من خطبة الجمعة ، ويطلبوا منه تثبيت القايم ، ويرسلوا اليه الهدايا والتقادم . وان هذه الاشارات التكرمية هي التي دفعت بعض المؤلفين الى المقابلة بين الخلافة والبابوية . كما ان هذه الميزات الشرفية وحدها تبرر ما كتبه السعودي في نحو السنة ٣٣٢ هـ (١١١١) من ان «عَمَل امير المؤمنين من فرغانة واقصى خراسان الى طنجه بالمغرب ثلاثة آلاف وسبع مائة فرسخ .»^١ وهي مساحة عظيمة . الا ان الخليفة لم يكن له فيها سوى شبح من السلطة ضئيل .

ولم يقف الانحطاط عند هذا الحد . فان كرامة الخلافة اصبحت العربية الثورات المتتابعة في البلاط ، يامب بها الوزراء وقواد الجيش من الترك او الديلم كيف شاروا ومتى شاروا . قترامم يحملون من الخلفاء ، ويقتلون ، ويولّون ، دون سبب سوى مشيئتهم الغلابة . وقد يولّون الخلافة ولدًا ابن ثلاث عشرة سنة ليستبدوا بالحكم استبدادًا تامًا ، فيشركون بالسلطة امّ الخليفة ، واكثر ما تكون من الجوارري المولدات ، مشفقين وخصيان البلاط . وقد كثر عدد هؤلاء في العصر الذي يهتنا فاحتاروا المراكز المختلفة وبلغ بعضهم اعلى الدرجات حتى في مراتب الجيش . وقد يكتفي هذا الجمهور المستبد بتجمع الخليفة وسل عينه فقط كي لا يقوى على استعادة السلطان^٢ . وفي اثناء هذه العملية الفظيعة كان انترك يأمرن بضرب الطبول كي ينظروا صراخ الخليفة المسكين وعويل نائه فلا يُسمع شي . من الخارج . ثم يتكون هؤلاء المخلوعين ، فيتلاشون شيئًا فثينًا في الفقير والمسكنة ، حتى لقد كان منهم من يقضي المر لابسا الصوف ومحتديًا

(١) السعودي : مروج الذهب ٢٧٥-٢٨٠

(٢) السعودي : التنيه ، ص ٢٨٨

قباب الحطب^(١).

وفي هذا العصر كان الخلفاء ، وقد هبطوا الى درجة لا يوثق لها ، يعدّون الالقاب الشرفية كالسلطان ، والملك ، والامير ، وامير الامراء ، وما شاكل ، ويمنعونها جزافاً مخترعين نوعاً جديداً منها ينتهي « بالملة » او « الدولة » او « الامة » كهاء الدولة ، وتاج الملة ، وما الى ذلك . وليس لهم من غاية الا تذكير الناس بوجودهم ، واخفاء ضعفهم الحقيقي ، والسعي في سبيل الربح المادي . فان هذه الالقاب والميزات الشرفية كانت تدرّ عليهم كميات من المال لا يُستهان بها . وكان اول من لقب بلقب « السلطان » محمود التزوي ، انعم عليه بذلك القادر (٣٨٢-٤٢٢ هـ)^(٢) فعرفها له .

ومما يجب ان نشير اليه ان سوقة بغداد توردوا في هذا العصر ، اذا ما بلغهم موت خليفة ، ان يهجموا على قصره وينهبوا كل ما تصل اليه ايديهم . حتى لقد بلغ منهم ان دخلوا الابواب والنوافذ احياناً . وكان يجاريمهم في ذلك خدم القصر ، وقد يستقلون درنهم بهذه الاعمال .

كان خلفاء الامويين ، واول خلفاء بني العباس ، يهتمون بالقاء الخطبة بانفسهم في صلاة الجمعة . وقد اشار التاريخ الى بلاغة معاوية وخلفائه الارلين في هذه الخطب ، والى رغبتهم في ان ينعتهم الشعراء « بفرسان المنابر . »^(٣) ويقول الخليفة عبد الملك ان هم القاء الخطبة شبيه قبل الاوان . على ان العباسيين تخلصوا شيئاً فشيئاً من هذه العادة . فكان الرشيد اول خليفة القى خطبة آفها غيره وحفظها هو عن ظهر قلبه . ولم يدخل القرن الثالث الهجري حتى اخذ الخلفاء يستنبون من يلقي عنهم خطبة الجمعة من عن منبر الجامع . وقد اشهر من هؤلاء الخطباء ابن نباتة († ٣٧٤ هـ) خطيب سيف الدولة امير حلب . فترك مجموعة خطب يمكن ان نعتبرها مثلاً للبلاغة الدينية في هذا العصر .

(١) ابن الاثير : الكامل ٨ : ٣٢٤

(٢) ابن الاثير : الكتاب المذكور ٩ : ٣٢

(٣) اطلب في ذلك كتابنا 64-62 ، p. Mo'awia ١٠٠

وهي تحالفت كل المخالفة ما نعرف من امثلة الخطابة الدينية في القرنين السابقين .
 فيينا نرى خطب زياد ابن ابيه والحجاج بن يوسف وغيرهما طافحة بالحلمة القوية
 والمأطفة المخلصة اذا باتار ابن نباتة لا تعدو الافكار العامة معبراً عنها بأسلوب
 مسجع ابعد من ان يميز نوات البلاغة الخطابية . وقد نشأت عادة الاسجاع
 هذه في منتصف القرن الثالث ، ولم تلبث ان تجاوزت الفن الخطابي الى انواع
 الادب عامة فارت ميطرة على الادباء سيطرتها على الخطباء . فاضرتهم جميعاً .
 وكان خطيب الجمعة في البلاد المقررة بالخلافة العباسية يلبس ، على المنبر ، الحية
 السوداء . اما في بلاد الفاطميين فكان يرتدي حبة بيضاء . وفي بعض الجوامع
 كانوا يرفعون ، فوق الصحن ، ستاراً واسعاً يظلل المستمعين اثناء الخطبة^(١) .

* * *

لا يأتي القرن الرابع الهجري كثيراً على ذكر الحوارج الذين كانوا قد
 خضروا البلاد الاسلامية بالدم مرات عديدة مدة القرنين السابقين . على ان هناك
 حركات اخرى تستحق الذكر ، هي حركة الشيعة المتحفزة للاقاع بعد ان
 استكنت طويلاً ، وحركات البدع والفتن المتولدة عنها كالاسماعيلية ، والنصيرية ،
 والقرامطة ، والفاطميين . . . وقد كانت بلاد الشام حتى هذا العهد شية
 بجعلها بفضل ما ترك فيها الامويون من الاثر الحسن . يدنا على ذلك ان
 الامام الشهير الثاني ، مؤلف « جامع السنن » ، احد « انكسب السنة » الشرعية ،
 لاقى الاسر في جامع دمشق ، في اوائل القرن الرابع ، لانه رفض التبسط في
 ذكر مناقب معاوية واراد وضع علي قوة .

ولكن لم يستتب الامر للدويلات الشيعة الاصل كبنو حمدان في حاب ،
 وبني عمّار في طرابلس ، حتى اخذ امراؤها بتعزيز مذهبهم في جميع مناطق
 حكوماتهم . فانشا بنو عمّار مكتبة دعوها « دار العلم » في سبل نشر الآراء
 الشيعة ، وقد نجحوا في ذلك ، على قول ناصري خسرو . وازدهرت البدع
 الشيعة في الجبال خاصة كبعض الحما . لبنان ، وجبل عامل ، وبلاد العلويين .

في زمننا الحاضر زى الشيعة دين الاكثرية الساحقة في بلاد فارس، بل دين الدولة الرسمي ، فتصور ان الفرس كانوا شيعيين منذ العصور الاولى للاسلام . والحقيقة ان هذه اليادة الشيعة بدأت باستتباب الامر للدولة الصفوية في القرن السادس عشر للمسيح . اما في القرن الرابع للهجرة فقد كانت بلاد فارس سنية في اكثرها ، ما عدا بعض الولايات كتمّ والمشهد وفيه قبور افراد من « اهل البيت » . ثم استفاد الشيعيون على عهد الدولة الصفوية الشيعة ، فسيروا الدعاء من جبل عامل يبشرون الفرس فنجحوا نجاحاً باهراً ، وحوّلوا الى الشيعة تلك الاكثرية التي كانت لا تزال سنية ، حتى ان الجغرافي المقدسي^(١) يذكر ان في زمانه كان اهل اصفهان من الغلاة في التشيع لماوية^(٢) . وكذلك في القرن الرابع الهجري ، لا قبله ، اخذت المعابد الشيعة الكبرى في النجف وكربلاء تنال شيئاً من شهرتها التي ما برحت تريد عصراً فمصرأ . يدل على ذلك ان المسعودي يؤكد في السنة ٣٢٢ هـ ان قبر علي لا يعرف مركزه الحقيقي ، فيقول : « وتد تنوزع في موضع قبره . فمنهم من قال انه دفن في مسجد الكوفة . ومنهم من قال انه سُحِل الى المدينة فدفن عند قبر قاطمة . ومنهم من قال انه سُحِل في تلبوت على جبل ، وان الجبل تاه ووتع في بلاد طي . »^(٣) ولكن الشيعيين اخذوا بعد هذا العهد يبنون في النجف اثراً فخاً في محل زعموه موضعاً لهذا القبر . ولم تلبث ان جرت عادة بينهم تدفعهم الى اختيار مدافنهم في جوار ذلك الاثر . وقد اعدوا كذلك في كربلاء قبر الحسين ابن علي الذي كان الخليفة المتوكل قد هدمه ، وحرث مكانه بالسكة ، فحوّله الى حقل يُزرع . وكذلك اعتاد الشيعيون ان يُختاروا مدافنهم في كربلاء . ولا يزالون على هذه العادة الى يومنا هذا . ولا يندر ان نسمع بن يوصي ان تُحْمَل

(١) المنصبي : الكتاب المذكور ، ص ٣٦٦

(٢) ليراجع في هذا الباب المقال النفس الذي نشره في المشرق [٢٦] [١٩٣٨] [٤١١] ... زميلنا الفاضل حبيب زيات بعنوان « التشيع لماوية في عهد العباسيين » ، وفيه الادلة الواضحة على الهوس في تكريم مؤسس الخلافة الاموية .

(٣) المسعودي : مروج الذهب : ٦ : ٢٨٨-٢٨٩ ؛ ٥ : ٦٨٥

جته على مسافة ايام تُدفن في تلك الارض المقدسة في النجف او كربلا . كما حدث لكافور الشهيد ، الوزير المصري ، اذ اشترى بيتاً في المدينة ، الى جنب قبر النبي ، واقام فيه قبراً واوصى بان يُنقل اليه فيدفن فيه^(١) .

وهناك القرامطة الذين حلوا محل الخوارج في اعمال الحمجية والتفطيع . فاخذوا ، منذ منتصف القرن الثالث ، يقطعون الطرق وينكفون . وقد دخلوا البصرة والكوفة ونهبوها ، وكادت بغداد نفسها تقع في ايديهم . وفي السنة ٥٣١٧ هـ هجموا على مكة فدخلوها واعلموا السيف في الحجاج ، ونهبوا الكعبة ، وقد عاونهم سكان مكة انفسهم في هذا النهب . ثم رجعوا حاملين الحجر الاسود . ولم يردوه الا في السنة ٣٣٦ لقا . فدية اقام العالم الاسلامي ٢٢ سنة حتى جمعها . ثم ايدفنا الى السؤال : لم تأخر المسلمون طول هذه المدة في اقتداء حبرهم ؟ اذ يكون في ذلك شيء من عدم الاهتمام او الامل ؟ . على ان الحجر المذكور اُصيب بعدة نواب من ما كان اشد مما انزل به القرامطة . من ذلك ان احد المصريين في السنة ٥١٣ هـ على عهد الخليفة الفاطمي الحاكم ، هجم على الحجر الاسود وخربه بدوس فكسر منه قطعاً . فاخذ الجاني وقتل في الحال وجمت القطع والصدقت بعضها الى بعض . وهناك غيرها من الاعتداءات على الحجر يطول بنا سردها^(٢) .

وكان من نتيجة فظائع القرامطة هذه وجشع البدو الدائم ان اصبح من الصعب على المسلمين ان يؤذوا فريضة الحج . اذ كانوا يتمرضون للقتل المؤكد بعض الاحيان . وقد شاهدت السنة ٣٨٤ هـ . قافلة السلطان الرسية ترتد عن طريق الحج ، لان البدو قطعوا عليها الطريق بحجة انها دفعت لهم دراهم زائفة^(٣) . وفوق المصيبة بالبدو ، كانت المصيبة بالمشركين بالعمولات . وذلك

(١) باقوت : ارشاد الاربب ٣ : ٤٠٨ .

(٢) ورد شي . من ذلك في مشرق السنة (٣٠ [١٩٣٢] ص ٦٩٦) عن جريدة « صوت الحجاز » المكية بمناسبة اعتداء احد الحجاج الانثان على الحجر المذكور سنة ١٩٣٢

(٣) ابن الاثير : الكتاب المذكور ٩ : ٧٤

ان الآبار ومخازن الماء، على طريق الحج، كانت قد خربت او كادت بسبب الإهمال او التعدييات الجمة. وقد بلغ عن قربة الماء سنة ٤٠٢ هـ مائة درهم. وفي السنة التالية افرغ البدو مخازن الماء، فالتفوا الوف الحجاج عطشاً، ومن لم يت اسرره حتى بلغت ضحاياهم خمسة عشر ألفاً. وفي السنة ٤٠٥ بلغت ضحايا الحج ٢٠,٠٠٠ ماتوا جوعاً وعطشاً، و ٦,٠٠٠ دفعوا الى شرب بول الجبال كي لا يموتوا. فنشأ عن هذه الصعوبات عادة جديدة، في القيام بفريضة الحج، وهي ان يوكل الانسان من يجهج مكانه، فيدفع له مبلغاً من المال، فيستفيد الرجلان: الموكّل الفائدة المادية، والموكّل الفائدة الروحية. على ان القائمين بهذا الحج المأجور لم يكونوا يستفيدوا شيئاً لا في تحمين اخلاقهم، ولا في زيادة مالهم، على ما حكم به الجبلافي المقدسي اذ قال: « رأيت من حجج باجرة انتكس قلبه. فان عاد ازداد نكوساً وقلّ ورعه، حتى ربما اخذ الحجتين والثلاث، ولم أر لهم بركة، ولا جمعوا منه مالا قط. »^(١) ولا شك في ان هذه العادة انتشرت بسرعة حتى تمكن ابو حيان التوحيدي من ان يولف سنة ٤٣٨ هـ رسالة في « الحج القليل »^(٢). وكان ابو حيان هذا صوفياً، ولا يخفى ان الصوفيين لم يكونوا ليعزّزوا الحج.

وإذا نظرنا الآن الى سياسة الاسلام الخارجية في القرن الرابع الهجري رأينا ان البيزنطيين ظهروا في مواضع عديدة على المسلمين، وتوسّعوا في فتوحاتهم. وقد دفعت هذه المظاهر كلها بعض المسلمين المخلصين فكانوا يرفعون الى الله تشكياتهم من ضعف سلطة الخليفة، ومن إهمال فريضة الحج، ومن تقدم « الكفار » السريع. ووافق هذا التضعف في السلطة الاسلامية العليا تتابع ثلاثة قرّاد عظام على عرش بيزنطية هم نيقتور، وزيمتقرس، وباسيليوس. وكان هذا من اعظمهم وقد ملك اكثر من نصف قرن. وبما يُذكر من همة نيقتور انه شى على البلاد الاسلامية فافتتح مدن كليكية، وترسيس، فحلب،

(١) المقدسي: ك.م. ص ١٢٧

(٢) باقرت: الكتاب المذكور ٥: ٢٨٢

فانطاكية ، فحاء ، فحمص ، فبعلبك ، فيبيروت . وانتسدت دمشق نفسها بان دفعت ٦٠,٠٠٠ دينار . فثار الشعب في بغداد على اهل السلطة وضجها وكسر المنابر في المساجد وهجم على قصر الخلافة .

وكانت هذه الحوادث الخارجية تريد في الفوضى السائدة في بغداد نفسها ؛ بسبب المشاحنات القديمة بين السنة والشيعة التي كثيراً ما كانت تؤذي الى القتال العملي . وكذلك كان شأن الختابة مع تباع سائر المذاهب السنية ، فانهم كانوا ينعون عليهم التهلك والخروج عن طرق الدين القويمة فيرد عليهم هولاء وينشب المراك ، وتسفر النتيجة عن بعض الجرحى او القتلى وعن حرق الجوامع والمكاتب . واذا قبض الظفر للحسابلة ، فانهم كانوا يدخلون دور الاشراف وكبراء الدولة فيكسرون اذان الحمر وآلات الموسيقى ، والحكومة عاجزة عن ان تردعهم . واذا فلا غرابة ان يقوم في السنة ٣٣١ هـ رئيس عصابة من قطاع الطرق يدعى ابن حمدي فيطلق رجاله على بغداد ينهبون ويسلبون ، متعنين مع عدة من كبار رجال الدولة على ان يدفع لهم ابن حمدي راتباً شهرياً يبلغ ١٥,٠٠٠ دينار . ولا غرابة ان يبيل سكان بغداد الى هجرها ، بعد ذلك ، حتى يخاف المقدسي ان تصبح مقفرة كما اقفرت سمرآء من قبل^{١١} . وما زاد في هذه المصائب حريق هائل شب سنة ٣٦٢ هـ قاتل ٣٣ جاماً ، واهلك ١٢,٠٠٠ نفس . فاتهم الناس السلطة بانها دبرت هذا الحريق عقاباً للكان وتهيداً لقمع الحركات الفوضوية .

ولم تكن حالة الاسلام في الغرب بافضل منها في الشرق . فان مسيحيي الاندلس كانوا ، كمسيحيي آسية الصغرى ، يتقدمون تقدماً متواصلاً على المسلمين . الا ان هناك مكاناً كان يتقدم فيه الاسلام تقدماً جغرافياً . هو الحد الشرقي . فان السنة ٣١٣ هـ شاهدت فتح بلوخستان ، وكانت لا تزال على وثنيها حتى ذلك الوقت . وفي السنة ٣٤١ هـ اسلم نحو ٢٠,٠٠٠ مضرب من مضارب الترك الرحل في آسية الوسطى . وقبل آخر القرن دخل الاسلام بلاد

قشغار وبلاد ختن، بينما كان السلطان محمود الغزنوي يفتح فتوحات جديدة في بلاد الهند.

كان القرن الاول للاسلام عصر اتساع وفتح، صرقت فيه قوى المسلمين الى العمل والجد الحارجين، حتى لا يمكننا ان نتخيل خالد بن الوليد او عمرو ابن العاص او زياد ابن ابيه او الحجاج يهتمون بالمناظرات الكلامية او جمع الاحاديث.

ثم كان القرن الثاني فاتحاً للاسلام فيه وفي القمم الكبير من القرن الثالث، يستجمع امره، ويتم نظامه الداخلي، فيحدد لاهوته وفلسفته وتقاليد الدين وقهه: فيعين طريقة تفسيره للقرآن، ويميد النظرة الاخيرة في تأليف سيرة الرسول. فتشأ المذاهب الفقهية المهمة: مذهب مالك بن انس (٧١٥+) ومذهب الشافعي (٨١٩+) ومذهب ابي حنيفة (٧٦٧+) ومذهب احمد بن حنبل (٨٥٥+) ولم يكن ابن حنبل في اول امره الا محدثاً بسيطاً. ولكن مذهبه توصل الى ان يُعتبر مذهباً قهياً من جملة المذاهب الشرعية مع الثلاثة الاولى. وقد حصل اختلاف شديد وتزاع قوي، بل عراك، بين هذه المذاهب ولكن المشاحنات هددت كلها في القرن الرابع الا ما خص المذهب الحنبلية. على ان المذاهب الاربعة جميعها، وان اختلفت في الفروع التطبيقية، تظهر على وفاق تام في المسائل الجوهرية، وكلها تعتبر شرعية سليمة، ينتمي اليها كل السنين تقريباً في القرن الرابع. وهناك اقلية كانت تنتمي الى مذهب الازعاعي الشامي (٧٧٤+) ومذهب داود بن علي (٨٣٣+) المعروف بالثناهرية، ومذهب المؤرخ الطبري (٩٢٣+) التي كانت تنقد من تبأها يوماً فيوماً حتى قنهي بالانحلال والتلاشي كما حصل لمذهب سفيان الثوري.

وقد عرف القرن الثالث حركة شديدة ورحلات متواصلة في طلب الحديث. فتشأ عن ذلك المجاميع المهمة المعروفة «بالكتب الستة»، واصحابها البخاري (٨٧٠+) ومسلم (٨٧٤+) المدعو «بالشيخين» وهما اشهر المؤلفين في الحديث كما ان صحيحيهما اشهر المجاميع في هذا القرن، يأتي بعد ذلك كتب ابي داود

(٨٨٨ +) والترمذي (٨١٢ +) والنسائي (٩١٥ +) وابن ماجه (٨٨٦ +) .
وقد لاقى ادخال مجموع ابن ماجه بين « الكتب الستة » مقاومة شديدة اول
الامر . ويضاف الى هذه الكتب احياناً « سنن » الدارمي (٨٦٩ +) . ومن
المجاميع المصنفة « مُسَد » ابن حنبل وهو في ستة اجزاء . كبيرة تبلغ ٢٨٨٥
صفحة محتوية على نحو ٣٠,٠٠٠ حديث . ويكتفي المؤلفون عادةً ، منذ ظهور
هذه المجاميع ، بشرحها ، وتلخيصها ؛ واذا زادوا شيئاً فانما يزيدون بعض
الحواشي والاستدراكات . اما التفهيم الشخصي فقد انتهى زمنه .

والكتب الستة مدينة بشهرتها لكونها ظهرت في زمن سبق عن قرب
« افعال باب الاجتهاد » ، ثم لانها جمعت احاديث اتفق عليها اصحاب كل الطوائف
تقريباً ، فكان موقفها متوسطاً بين ارباب النقد الشديد وتبأع التصديق الاعمى
مع ميل قليل الى هؤلاء ، واخيراً لانها اعرضت كل الاعراض عن الاحاديث
الشيعية المفضة . ولهذا لا يرى الشيعة بعين الرضى البخاري ومسلماً ، ولا
يستندون في الغالب الى صحيحهما .

وبما يجدر بالذكر في ما خص الحركة العقلية ان نظريات المعتزلة كانت قد
وضعت شيئاً من الاضطراب في عقائد القرن الثالث . وذلك بما جاهرته به من
خلق القرآن ، وارادة الانسان الحرة ، وضرورة عدم التمييز في الله بين الجوهر
والصفات والا فان المؤمن يُفقد عقيدة التوحيد ويقع في التجسيم . فكان ان
الاشعري (٩٦٥ +) انفصل عن المعتزلة وعمل على ايجاد مذهب متوسط يرتكز
على تعابير مرنة رآها جديرة بالتوفيق بين العقل والوحي وبارضا . ارباب المنطق
وسنن المؤمنين جميعاً . وقد تبعت الستة مذهب الاشعري حتى يومنا هذا .

وفي ذلك الوقت انتهى التفسير القرآني الى حده المعروف . واعظم بمثليه
المؤرخ الطبري الشهير ، وقد ترك تفسيراً ضخماً في ٣٠ مجلداً جمع فيها كل ما
تركه سابقه من المعلومات التفسيرية فذكر نصوصها وقابل بينها ، مانلاً دائماً
الى جهة المحافظين التقليديين .

عند ذلك ، بعد عمل دام نحو مائتي سنة ، وقد ألفت المذاهب ، ووضعت

«الكتب» ، وانتصرت نظريات الاشعري الكلامية وما اتت به من حلول متوسطة ، وأقر التفسير التقليدي للقرآن ، عند ذلك ، واعتباراً من القرن الرابع ، اتفق المسلمون على «اقفال باب الاجتهاد» . ومنذئذ اضحى العلماء والمؤمنون البسطا . لا يمكنهم ان يتجاوزوا في شي . تقليد السلف الصالح ، واحكام المذاهب الاربعة ، وهم يعتبرون ، في ذلك ، ان جميع المشاكل الويضة درسها علماء السلف ومحصوها واثاروا الى حلها .

وهكذا بينا زى الخلافة يضعف شأنها ، والفئات الشيعية المختلفة ترفع رؤوسها في مختلف انحاء العالم الاسلامي ، اذا بنا تشهد الاسلام السني يستجمع امره ، ويسهر على عقائده ، فيضم في وحدة محدودة جميع المواد الضرورية لحياته الايمانية والفقهية . هذه هي الظاهرة التي اشار اليها المستشرق السويسري ميذ (A. Mez) فسأها «اجيا . الاسلام»^١ كما لو كان تمرکز العقيدة التقليدية ، وقرارها بواسطة «الاجماع» ، ميلاداً جديداً ار حياة جديدة للاسلام .

واذا اردنا ان نحدد ميزةً ديفية للاسلام في القرن الرابع الهجري فإنا ننا نشير الى اقرار عقائده ومؤسساته الدينية ، هذا الاقرار الذي يمكن الاسلام ، بفضل منع المناظرة والاستقلال العقلي ، من الحياة حتى ايماننا عده . ولكن بقي عليه ان يقاوم حملات الاتحاد والبدع المصرية . . .

A. Mez, Die Renaissance des Islām, Heidelberg, 1922. (١)

